مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (٥) العدد (٣) ٢٠٢١
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (5) No. (3) 2021

المكان ودلالاته في رسالة الصاهل والشاحج لأبي العلاء المعريّ

أ. د. حكمت عيسى*
د. مصطفى نمر**
فاطمه علي***

(تاريخ الإيداع ٦ /١ /٢٠٢١. قُبِل للنشر في ١٢/ ٤ /٢٠٢١)

□ ملخّص □

يُعَدُّ المكان عنصراً رئيساً في أيّ عملٍ حكائي، فهو الحاوي للشخصيّات، وعليه يتمّ الحدث، وتظهر معالم الزمان، وقد اهتم به الدارسون، وأولوه عنايةً خاصّة في بعض الأعمال، مبرزين أثره في عناصر السرد الأخرى، مبينين أثر الزمان فيه، موضّحين أنواع الأمكنة وأبعادها الدلالية.

يسعى هذا البحث إلى إظهار أهمية المكان عامةً، وعلاقة المكان مع عناصر السرد الأخرى، وتحديد الأمكنة التي اختارها المعري لتكون ميداناً للحدث الحكائي في رسالة الصّاهل والشاحج، كما يسعى إلى إبراز التشكيلات المكانية في الرسالة، ورمزية تلك الأماكن، وعلاقة الشخصيّات الفاعلة وغير الفاعلة بالمكان، والأبعاد التاريخية والاجتماعية والسياسية لهذه الأماكن بعد تحديدها بدقةٍ.

الكلمات المفتاحية: المكان، الشخصيّة، الدلالة، البُعد.

* أستاذ، قسم اللغة العربية، الاختصاص: الأدب العباسي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة تشرين، اللاذقية ، سورية.
** أستاذ مساعد، قسم اللغة العربية، الاختصاص: بلاغة وموسيقا شعر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية.
*** طالبة دراسات عليا: دكتوراه، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية.

مجلة جامعة طرطوس للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (٥) العدد (٣) ٢٠٢١
Tartous University Journal for Research and Scientific Studies –Arts and Humanities Series Vol. (5) No. (3) 2021

Setting and its significance in Risalat Al-Sahel Wa Al-Shahij for Abi Al Alaa Al Maarri

Prof: Hikmat Essa*
Dr: Mustafa Nimr**
Fatima Ali***

(Received 6/1 /2021. Accepted 12/4/2021)

□ ABSTRACT □

Setting is a major component of any narrative work, it is the container of the characters, and within it the event takes place, and the effects of time appear. Scholars took care of it, and they took special care in some works, highlighting its impact on other narrative elements, showing the effect of time on it, and explaining the types of settings and their semantic dimensions.

This research seeks to show the importance of the setting in general, and its relationship with the other narrative elements, And defining the places that Al-Maari chose to be the field for the narrative event in Risalat Al-Sahel Wa Al-Shahij. It also seeks to highlight the spatial formations in it, the significance of those places, the characters' relationship with the setting, and the historical, social and political dimensions of these places after being precisely defined.

Keywords: Setting, Character, Formation, Significance, Dimension.

*Professor, Department of Arabic Language, Specialty: Abbasid Literature, Faculty of Literature and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.
**Assistant Professor, Department of Arabic Language, Specialty: Rhetoric and musical poetry, Faculty of Literature and Humanities Tishreen University, Lattakia, Syria.
***Postgraduate Student: PHD, Department of Arabic Language, Faculty of Literature and Humanities, Tishreen University, Lattakia, Syria.

مقدّمة:

لم يولِ المهتمون بدراسة النصوص السردية اهتماماً كبيراً بالمكان فيما سبق، حتى أعطاه باشلار عنايةً خاصةً غيّرت النظرة إليه، وأبرزت أهميته، فبدأت البحوث حول المكان في الأعمال الحكائية. والمكان في الحكاية له خصوصيته التي تنبع من طبيعته الواقعية المحسوسة التي تتحوّل من إطارها المرجعي الواقعي إلى إطارها التخييلي، وتأتي أهميته من أنّه يحتوي العناصر السردية كافةً ويمنحها المناخ المناسب للظهور، فيكون بذلك فاعلاً في السرد، بالإضافة إلى كونه منفعلاً فيه.

أهمية البحث وأهدافه:

يسعى هذا البحث إلى مقاربة المكان في رسالة الصّاهل والشّاحج، وإبراز الحياة الاجتماعية والسياسية والفكرية في عصرٍ كانت فيه الدولة العباسية في طور الضعف والتفكّك، بسبب تولّي الموالي من غير العرب الحكم في بعض الإمارات الحدودية أو ما يُسمّى الثغور، والخلافات التي أدّت إلى احتمال نشوب حربٍ بين العرب والروم، وإبراز ملامح المكان باختلاف تسميته وأثر" الجفلة " من الحرب في المكان وسكّانه.

منهجية البحث:

اعتمد هذا البحث المنهج الوصفي؛ فهو يتيح تناول المكان ودراسة أبعاده المختلفة، وتحليلها، وصولاً إلى الكشف عن الأبعاد الدلالية التي رامها المبدع.

١. أهميّة المكان

تحيط الأمكنة بالإنسان أنّى نظر، وكيفما اتجه. وقد تجلّت عظمة الخالق لمخلوقاته بداءةً بالمكان، فالكون بمداه كان الخطَّ الأوّل لتجليّات القدرة الإلهيّة.[١]وقد حظي المكان باهتمام الفلاسفة والنقّاد قديماً وحديثاً، فقدّموا له تعريفاتٍ عديدةً، منها ما جاء عن أفلاطون الذي عرّفه بأنّه " الحاوي للموجودات المتكاثرة، ومحلّ التغيير والحركة في العالم المحسوس."[٢] ومنها ما جاء عن أرسطو الذي تابع ما ذهب إليه أفلاطون، وعرّفه بأنّه:" الحاوي الأوّل، وهو ليس جزءاً من الشيء، لأنّه مساوٍ للشيء المحويّ."[٣] وقد كان لأرسطو تأثيره الكبير في تفكير فلاسفة المسلمين، فتعريف ابن سينا للمكان لا يبتعد عن تعريف أرسطو؛ إذ يذهب إلى أنّه " السطح الباطن من الجرم السّماوي للسّطح الظّاهر من الجسم المحويّ.".[٤] وأورد الجرجاني تعريفين للمكان في معجم التعريفات، أحدهما تعريف الحكماء، الذي يلتقي مع تعريف ابن سينا، وآخر للمتكلّمين يحدّده بأنّه: " الفراغ

---

[١] يُنظر: *القرآن الكريم* ، سورة الأعراف ، الآية ٥٤. ويُنظر: *الكتاب المقدّس*، الأصحاح الأوّل، سفر التكوين، الآيات (١، ٢، ٣، ٤، ٥).

[٢] نقلاً عن: محمد، علي عبد المعطي. ١٩٨٤م، *قضايا الفلسفة العامة ومباحثها*. ط٢، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ص١٢٤.

[٣] نقلاً عن: بدوي، عبد الرحمن. ١٩٨٤م، *موسوعة الفلسفة*، ط١، الجزء الثاني، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ص٤٩١.

[٤] يُنظر: العبيدي، حسن مجيد. ١٩٨٧م، *نظرية المكان في فلسفة ابن سينا*، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ص٣٣ وما بعدها.

المتوهَّم الذي يشغله الجسم وتنفذ فيه أبعاده"[١]. وقد فرّق بين نوعين من المكان: المكان المبهم، والمكان المعين.*

ولأنّ كلَّ عصرٍ من العصور يتميّز بطابعه الثقافيّ والعقائديّ الذي يبدو واضحاً في المكان، فإنّه لا يمكن دراسة المكان بمعزلٍ عن دلالاته الحضارية، "حيث تسود ثقافةٌ معينةٌ أو رؤيةٌ خاصّةٌ للعالم."[٢]وقد أجمع عددٌ من الدارسين على أنّ المكان: "وعاءٌ للحدث وللشخصيّة؛ إذ يُظهر مظاهر الحياة التي تعيشها الشخصيّات، كما يحوي الأحداث التي تنمو مسيرتها ضمن إطارٍ مُحدَّدٍ"[٣]، وهو يعكس سلوك الفرد ومشاعره وأحاسيسه، ويحدّد طبيعة الشخصيّة وسماتها.[٤] ويذهب غاستون باشلار إلى القول: إنّ المكان هو" ما عيش فيه لا بشكل وضعي، بل بكلّ ما للخيال من تحيّزٍ، وهو بشكلٍ خاصٍ، في الغالب مركز اجتذابٍ دائمٍ"[٥]، فمقاربة المكان تحيل إلى الواقع، وإن اختلف عنه، والمكان الفنيّ يبتعد عن الواقع، من حيث العلاقات القائمة بين أفراده، ومن حيث ترتيب تضاريسه وبعض مكوّناته، ويقترب منه من حيث مكوّناته الموضوعية المحسوسة من وجودٍ جغرافيّ بتسميته المتعارف عليها، وطبيعة مناخه، وأسماء بعض سكّانه المعروفين المؤثّرين فيه، وإن اختلف تأثيرهم في الواقع عن تأثيرهم في المتخيَّل.

وقد ميّز المهتمّون بدراسة البناء السرديّ للنصّ الحكائيّ المكان من الفضاء،*ورأوا أنّ الفضاء أوسع وأشمل من المكان، فأطلقوا مصطلح الفضاء على مجموعة الأمكنة التي تمّ بناؤها في النصّ الحكائيّ، "والمكان بهذا المعنى هو مكوّنٌ للفضاء."[٦]

والمكان في الحكاية ليس نفسه في الواقع الخارجي، وإن أشارت إليه الحكاية تسميةً، ولكنّه يبقى عنصراً من عناصرها الفنيّة فهو:" المكان اللفظيّ المتخيّل، أي المكان الذي صنعته اللغة انصياعاً لأغراض التخيّل[...] وحاجاته."[٧] ومن الناحية الأدبيّة، فإنّ فضاء الحكاية هو الكون الذي يخلقه الكاتب خلال الحكاية، فالأحداث من غير الضرورة أن تجري فيه بأكمله، ولكنها تجري ضمنه، أي هو العالم الواسع الذي يشمل مجموع المواضع التي تقع فيها أحداث الحكاية، إضافةً إلى وقع تلك الأحداث في نفس شخصيّاتها ومتلقّيها.

والمكان صنو الزّمان، عنصرٌ مهمٌّ من عناصر السرد الحكائيّ، فيه تجري الأحداث، وتتبدل الشّخصيّات، وتتحاور، وتحكي، وتتصارع، وتتحوّل، ويمكن القول: إنّه ملفوظٌ حكائيٌّ مؤثّرٌ في عملية السّرد، وأهميته تبدو جليّةً في

---

[١] الجرجاني، علي بن محمد؛ تحقيق ودراسة: محمد صديق المنشاوي. *معجم التعريفات*، دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، ص١٩١.

* عرّف الجرجاني المكان المبهم بقوله: هو عبارةٌ عن مكانٍ له اسم تسميته بسبب أمرٍ غير داخلٍ في مسمّاه كالخلف، فإنّ تسمية ذلك المكان بالخلف إنّما هو بسبب كون الخلف من جهة وهو غير داخلٍ في مسمّاه. وعرّف المكان المعيّن بقوله: هو عبارةٌ عن مكانٍ له اسم تسميته به بسبب أمرٍ داخل في مسمّاه كالدّار فإنّ تسميته بها بسبب الحائط والسقف وغيرهما وكلّها داخلةٌ في مسمّاه. يُنظر: *المصدر السابق*، ص١٩١.

[٢] لحمداني، حميد. ١٩٩١م، *بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي*. ط ١،المركز الثقافي العربي، ص٥٤.

[٣] بحراوي، حسن. ١٩٩٠م، *بنية الشكل الروائي*: الفضاء، الزمن، الشخصية ، ط١، بيروت، المركز الثقافي العربي، ص٢٩.

[٤] ينظر: الزعبي، زياد.١٩٩٥م، *المكان ودلالاته في رواية العودة من الشمال*، مجلة أبحاث اليرموك، جامعة اليرموك، الأردن، المجلد ١٢، عدد٢، ص ٢٠-٢١ .

[٥] باشلار، غاستون، ترجمة : غالب هلسا. ١٩٨٠م، *جماليات المكان*. بغداد، وزارة الثقافة والإعلام، ص ١٧٩ .

* ميّز بعض الدارسين الفضاء والحيّز والمكان، ورأوا أنّ الفضاء هو مجموع الأمكنة، والحيّز يشير إلى الصلة بين الأجسام داخل المكان وهو فراغ ذو ثلاثة أبعاد، وليس كالمكان ذو بعدين. (فيزيائياً).

[٦] لحمداني، حميد. ١٩٩١م، *بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي*. ط١، المركز الثقافي العربي، ص ٦٣.

[٧] الفيصل، سمر روحي. ١٩٩٥م، *بناء الرواية العربية السورية*، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، ١٩٩٥م، ص ٢٥١.

تشكيل العالم الحكائيّ، ورسم أبعاده فهو " الوجه الأوّل للكون، وهو محور الحياة الذي تحيا فيه الكائنات، وتتموضع فيه الأشياء، وقد يلعب [...] دوراً مهمّاً في تحديد نسق الحياة للكائنات الحيّة التي تعيش فيه، ومنح أشكالٍ محددّةٍ للأشياء المتموضعة فيه."[١] فالمكان يشدّ مكوّنات العمل الحكائيّ، ويسهم في قراءته وفهمه، وعليه فإنّ المكان هو المستودع الذي يُسقِط فيه السّارد مكنونات ذاته، وتفصيلات المكان الحسيّة تعبّر عن لاشعور السّارد؛ فيتحول بذلك إلى رمزٍ غنيّ بالدّلالات، أو يمكن أن يتحوّل إلى قناعٍ يحمل الأبعاد النفسيّة للسّارد ولأبطاله في عمله الحكائيّ.

وإن كانت الحكاية يمكن أن تتخلّى عن المكان، وتكتفي بالزمان في بعض صورها*، فإنهّا تصبح أكثر مصداقيةً وقرباً من المتلقّي بارتباطها بالمكان، الذي" يسهم في خلق المعنى"[٢]، ويمكن أن يكون بطلاً في الحكاية، فيتحرك الحدث لأجله، ويشكّل نقطة صراعٍ مهمّةً في الحياة وفي الأدب؛ فالمكان مكوّنٌ أساسٌ للشخصيّات داخل المجال المحدّد لها، ويمكن القول: إنّ "العمل الأدبي حين يفتقد المكانيّة فهو يفقد خصوصيته، وبالتالي أصالته"[٣]، وقد أشار ياسين النصير إلى أهمية المكان بقوله:" إنّ المكان دون سواه يثير إحساساً ما بالمواطنة، وإحساساً آخر بالزمن والمخيلة حتى لنحسبه الكيان الذي لا يحدث شيءٌ من دونه."[٤]وعليه لابدّ من مقاربة علاقة المكان بعناصر السرد الأخرى.

يلمس المتلقّي أهمية المكان لدى المعريّ من خلال ذكره سبب رسالته لأمير حلب؛ وهو رفع الضريبة عن أرض أبناء أخيه، والأرض المقصودة كانت مسرحاً لأحداث الحكاية، منها بدأت، وفيها انتهت. فالأرض كانت القضية التي سُطِّرت من أجلها الرسالة ودارت على ثراها أحداث الحكاية، ووقفت فوقها شخصياتها.

وتُلمَسُ أهمية المكان بكثرة أسماء البلدات التي أوردها السارد على لسان شخصياته، وحمّلها أبعاداً رمزيةً صرّح بتأويلها في حوار الثعلب والشاحج في المشهد الأخير من الحكاية. فالرسالة بدأت بالتصريح بأهمية المكان وانتهت بذلك من خلال رصد الدّلالات التي تحملها أسماء الأمكنة في التفاؤل بالنصر على الأعداء. وهكذا ارتقى المكان في رسالة الصّاهل والشاحج إلى مستوى الرمز، حين جعل السارد شخصياتِه تخشى من ضياع هذا الرمز، بل تعمّق الإحساس بمصيره المحتوم، انطلاقاً من حلب المدينة إلى كلّ ركنٍ من أركان الإمارة.

٢. علاقة المكان بعناصر السرد:

• علاقة المكان بالشخصيات:

تقوم الشخصيّة بفعل الحدث الحكائيّ، الذي لابدّ أن يقع في مكانٍ ما، وأحداث التّاريخ ترتبط بأماكن حدوثها، كما ترتبط بأبطالها الذين قاموا بها، ولا غرو أنّ المكان يرخي بظلاله على الشخصيّات التي تعيش فيه، فيطبعهم بطابعه، ويسبغ عليهم صفاته. ومعرفة طبيعة المكان الذي تعيش فيه الشخصيّة، يساعد كثيراً في

---

[١] أحمد، مرشد. ١٩٩٢، *جدلية الزمان والمكان في روايات عبد الرحمن منيف*، مجلة بحوث جامعة حلب، العدد ٢٢، ص ٥٦.

* يرى جيرار جينيت أنّه من الممكن أن تُقصّ الحكاية من دون تعيين مكان الحدث. يُنظَر: زيتونة، لطيف: معجم مصطلحات نقد الرواية، مكتبة لبنان ناشرون، دار النهار للنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٢، ص١٠٣.

[٢] لحمداني، حميد: بنية النص السردي، ص٧٠.

[٣] باشلار، غاستون؛ ترجمة: غالب هلسا. *جماليات المكان*. مقدمة المترجم، ص ٥ ـ ٦.

[٤] كتابه. *إشكالية المكان في النص الأدبي*، ١٩٨٦م، ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، ص ٥.

تفسير صفاتها، وسلوك الشخصيّة " يصل إلى المتلقّي من خلال الجزئيّات الماديّة للمكان"[١]. كذلك تؤثّر الشخصيّة في المكان الذي تعيش فيه، وتطبعه بطابعها الشخصيّ، وهنا يجب التفريق بين المكان الخاصّ الضيق الذي تقطن فيه الشخصيّة وتؤثّر فيه، وبين المكان العامّ الأوسع الذي تعيش فيه الشخصيّة ويؤثّر فيها، وعليه يبدو التأثير متبادلاً بين الشخصيّة والمكان، مما يعطي المكان بُعداً اجتماعيّاً. كما أنّ بعض الأمكنة مثار نزاعٍ مستمرٍ للسيطرة عليها، فنالت بذلك رمزيتها، وأخذت بعدها السياسيّ. وتعدّ الأماكن الدينيّة من أكثر الأماكن ارتياداً لما فيها من قدسيّةٍ ومنزلةٍ رفيعةٍ عند البشر. وقد يرتبط المكان بأحداثٍ تاريخيّةٍ، ويبقى شاهداً على حضاراتٍ متعددةٍ نمت فيه، وبقيت آثارها خالدةً تحكي قصّة مجدٍ غبر، وشعبٍ اندثر.

ولا ريب أنّ للمكان سلطةً على الشخصيّة، تبعاً للعلاقة التي تربطهما،" فيفرض كلُّ مكانٍ سلوكاً خاصّاً على النّاس الذين يذهبون إليه."[٢]وعلى ما سبق يأخذ المكان أبعاده ودلالاته الاجتماعيّة والسياسيّة والدينيّة والتاريخيّة. وعلاقة الشخصيّة بالمكان تختلف من شخصيّة إلى أخرى ومن مكانٍ إلى آخر، فيمكن أن تكون هذه العلاقة متناميةً إيجابيةً تقوم على الاندماج بين الشخصيّة والمكان، أو متناميةً سلبيةً تقوم على الكراهية والعدائيّة، أو جامدةً تقوم على الحياد.

- **علاقة المكان بالزمان:**

إنّ أثر الزّمان يظهر في الموجودات جميعها؛ أي في الطّبيعة والإنسان، وهذا يعني أنّ أثره بادٍ في المكان. ويرتبط الزمان بالحدث الذي يقع في المكان ويترك أثره فيه، والمكان يتحدّد بالوصف، والوصف هو نقلٌ لواقعٍ حقيقيّ أو متخيّلٍ، يتغير بتغيّر شكل المكان، ولأنّ المكان محسوسٌ، فإنّ التغيّرات تبدو جليّةً فيه، والزّمان يعمل على هذا التغيير، فالمكان خاضعٌ في تغيّراته للزّمان؛ وثمّة أمكنةٌ ارتبطت بأزمنةٍ معينةٍ، وبذكر المكان يُصار إلى زمنٍ آخر، فذكْر مكّة المكرّمة أو المدينة المنوّرة، يُعيدُ إلى زمن الرّسول محمد ﷺ، وزيارة تلك الأماكن تجعل المرء يتنفس عبق التاريخ، وفي الأماكن الأثريّة، يسترجع حضارةً نمت عبر الزّمان وازدهرت في المكان، وبقيت شاهدة عليه.

فالمكان " يكتسب كينونته من الزّمان الذي يُدِبُّ فيه الحركة، والزّمان يكتسب زمنيته من المكان والحركة في داخله."[٣]والمكان في العمل الحكائيّ كيانٌ يحتوي على تاريخٍ ما. ولمقاربة الزّمان لابدّ من ربطه بطابع المكان،" والكمية الزمنية التي يختزنها المكان تعني المسافة التي مرّ بها المكان في مسيرة انتقاله من مرحلةٍ إلى مرحلةٍ."[٤]وبالنتيجة: إنّ الزمان والمكان مرتبطان بعضهما ببعض، وقد ظهر ما يُسمى مصطلحٍ "الزمكان" ليعبّر عن التداخل بينهما، إذ " يندمج (المكان) في حركة الزّمن والموضوع بوصفه حدثاً أو جملة أحداثٍ، والتاريخ. علاقات الزمان تتكشف في المكان، والمكان يدرك ويقاس بالزمان."[٥]ومهمة السرد تقديم الزمان والمكان بطريقة فنية .

- **علاقة المكان بالحدث:**

---

[١] حسانين، محمد مصطفى علي.٢٠٠٤م، *استعادة المكان (دراسة في آليات السرد والتأويل في رواية السفينة لجبرا ابراهيم جبرا نموذجاً)*، ط١، دائرة الثقافة والإعلام، الإمارات العربية المتحدة، حكومة الشارقة، ص٢٦.

[٢] صدوق، نور الدين.١٩٩٤م، *البداية في النصّ الروائي*. ط١، دار الحوار، سوريا، اللاذقية، ص ٤٧.

[٣] النابلسي، شاكر. ١٩٩١م، *مدار الصحراء (دراسة أدب عبد الرحمن منيف)*. ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ص٢٣٤.

[٤] صالح، صلاح. ١٩٩٧م، *قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر*،ط١، دار شرقيات، القاهرة، ص١١٥.

[٥] باختين، ميخائيل؛ تر: يوسف حلاق، ١٩٩٠م، *أشكال الزمان والمكان في الرواية*.ط١، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ص٦.

تتضح صورة المكان من خلال الأحداث، وحركة الشخصيات، فالحدث لا يجري في الفراغ، بل في مكانٍ ما يتخيّله السّارد، ثم المتلقّي، كما أنّ العلاقة المتبادلة بين المكان والحدث قد تعبّر عن وضعٍ اجتماعيٍّ معيّنٍ، أو عالمٍ متخيَّلٍ قَلِقٍ، أو قد تكون حلماً بعالمٍ بديلٍ عن الواقع.

للحدث دورٌ فعّال في بناء المكان، إذ يمنح المكانَ دلالته، فالمكان خاوٍ لا قيمة له فنياً إلا بارتباطه بالحدث، "والوصف المكثّف لمكانٍ ما، والمبالغة فيه تدلُّ على استحواذه على حدثٍ ما أو قيامه بالتحكّم بمسرح الأحداث وقيادتها إلى نهايتها."[١] ويؤثر المكان في الحدث، كما يؤثر الحدث في المكان؛ فجغرافية المكان الواقعيّ أو المتخيّل قد تساعد في خلق الحدث، وتتّضح معالم المكان من خلال الحدث الذي يقع فيه.

- **علاقة المكان باللغة:**

هي الأداة الفاعلة في السرد فلا قصّةً منقولةً خارج اللّغة باختلاف هذه اللغة (الفصحى، واللهجات العامية، ولغة الصمّ والبكم، والرسم، والتصوير، والموسيقا...)، والمكان في الحكاية فنيٌّ متخيَّل، وجوده مستقرٌّ في خيال السّارد، يحوّله إلى واقعٍ عبر اللّغة، وعلى كون هذا المكان واقعيّاً مرجعيّاً، يحرفه السّارد دلالياً ليخدم رؤيته. ويجدر القول: إنّ المكان في السرد ينزاح دلالياً عن المكان المرجعيّ الموجود في الواقع، تحرفه اللغة وترسم أبعاده الجديدة ليخدم دلالاتٍ يرومها السّارد، والسارد لا يعكس الواقع على الورق، بل يمثّله فنيّاً، والمكان الفنيّ له قوانينه المنزاحة عن قوانين الواقع، أي عن المكان الواقعيّ. واللغة الأدبيّة:" تجعل الماضي واقعاً معيشاً، وتمتدّ بالحاضر إلى رؤيةٍ مستقبليّةٍ مشحونةٍ بالتوقّعات، كما أنّها تحمل الإشعاعات الفكريّة، والعاطفيّة، وتجعل الشخصيّة تعيش اللحظة تلو اللحظة في جدّة وحيويّة إذ تجعلها تنمو مع حركة الزّمن."[٢]

لم يعد المكان سطحياً يمكن تجاوزه أو تجاهله؛ لأنّ عمقه الدلاليّ يفرض قيمته الجماليّة التي تُبرِزُ رؤية السّارد ومن ورائه المؤلّف وتكشف توجهّاتهما؛ وعليه فإنّه لا يمكن فصل المكان عن باقي مكوّنات السرد، فالكشف عن القيم الرمزيّة والدلاليّة للمكان تنتج من خلال تداخل عناصره وانسجامها داخل البنية السرديّة. واللّغة الأدبية لغةٌ انزياحيةٌ محمَّلة بالرموز والدلالات التي يستخدمها السارد في البناء الفني لحكايته، فيقدم الحدث، ويرسم الشخصيّات، ويحدّد الزمن، ويصوّر المكان؛ وتبعاً لذلك يمكن القول: إنّ للّغة " نظاماً دلالياً وجمالياً أيضاً، قادراً على استحضار كلّ الموصوفات والمذكورات في الذهن، فيرتسم الحيّز، وتتحدّد معالمه، وتتكوّن حدوده، وتتشكّل جغرافيته الأدبيّة التي تتّصف،[...] بانعدام الحدود، أو بقدرتها [...] على الاتساع والشسوع، والامتداد والغبور."[٣] فدلالة المكان لا تقتصر على أبعاده الهندسية، وشكله الخارجي، بل تمتدّ إلى الغوص في أسراره الداخلية وما يخفيه من قيمٍ خلف زاوية الرؤية، ما يحيل إلى التحليل والتنقيب والبحث عن جماليته، أي تجاوز النظرة التقليدية التي تحدّد قيمته وجماليته.

٣. تحديد المكان الحكائي في رسالة الصّاهل والشّاحج:

---

[١] حسانين، محمد مصطفى علي. *استعادة المكان (دراسة في آليات السرد والتأويل في رواية السفينة لجبرا إبراهيم جبرا نموذجاً)*، ص ٢٤.

[٢] إبراهيم، نبيلة.١٩٩٢م، *نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغويّة الحديث*، ط١، مكتبة غريب، القاهرة، مصر، ص ٣٣.

[٣] مرتاض، عبد الملك.١٩٩٨م، *في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السرد)*، سلسلة عالم المعرفة (٢٤٠)، المجلس الوطني للثقافة والآداب، الكويت، ص١٣٥ ـ ١٣٦.

يُعرَّف المكان الحكائيّ بأنّه " مسرح الأحداث، أو الحيّز الذي تتحرّك فيه الشخصيات، أو تقيم فيه."[١]وقد حدّد السّارد أمكنته بدقّةٍ حين عمد إلى اختيار أمكنةٍ واقعيةٍ وتسميتها بأسمائها الصريحة مثل (حلب، معرة النعمان، منبج، أنطاكية، حماة، حمص...) وذلك لتوفير الإيهام الفنيّ للحكاية، ولتوثيق بعض الأحداث التاريخيّة بطريقةٍ فنيّةٍ.

تتحرّك شخصيّات رسالة الصّاهل والشّاحج في فضاء إمارة حلب، بينما تشكّل أرض أبناء أخي الكاتب الحيّز المكانيّ الذي يؤطّر الحدث، وهي ذاتها الأرض التي يقيم عليها الشّاحج، وتبدو مركز استقطابٍ للشخصيّات الحكائيّة مشكّلةً قاعدةً ثابتةً لها، وقد ضاق الوصف في إيضاح طبيعة هذه الأرض ومعالمها، فلم يقدّم السّارد وصفاً يدلّ على معماريتها، أو ملامحها الخاصّة، أو أيّة تفصيلاتٍ مكانيّةٍ تسمح للقارئ بتخيّل شكلها، فتظهر في حديث الشّاحج " كالمريضة، غِراسُها ليس بعميمٍ، وثمرُها بين الثّمرِ كبني يربوعَ في بني تميمٍ، إلا أنّ أولئك حُمِدوا في الغارةِ، وذُمَّ هذا حين يَغِيرُ، وحين يُختَبَزُ لا يطيب منه الخبزُ، وما سُقيَ منها بالأبق والأديم، فهو العناءُ المُنْصِبُ في الحادثِ وفي القديمِ، يشتكيه المالك ومن يعمل فيه، ويجعلُ حليماً مثل سفيهٍ، كأنَّ ماءه المُنْتَزَعَ كافرٌ، غُفِرَ له بعد ما مسّتْهُ سَقَرُ، فقد عُولي من أسفل سافلين إلى أعلى عِلّيِين، وربما غار ونكزَ، فلم يُقَل المِلْطَسُ في إخراجه حتى يرجع إلى قَرَواهُ..."[٢]وربما لم يعمد السّارد تجهيل المكان، ولكنّه لم يوله الاهتمام، لما يتّصف به مؤلّف الرسالة من كفّ البصر، فلم يذكر موقع الأرض، موطن الحدث، ولا تضاريسها، ولا اتّساعها، بل اكتفى بعباراتٍ قليلةٍ، أتمَّ من خلالها تشكيل المكان، فكان ذلك كافياً للتعبير عن جدب تلك الأرض وقلّة خيرها، وكان كافياً لإظهار أثر المكان على بطل الحكاية، وإظهار الظّلم الذي يلاقيه من مالكها، فأُفرغ من أيّة إرادةٍ حقيقيةٍ للفعل، وغدا آلةً للعمل، ينفذ الأوامر الموكلة إليه فقط ، ولكن بقيت في نفسه رغبةٌ في الحريّة، لم يسعَ إلى ربطها بالعمل، بل اكتفى بالأماني والثرثرة والطلب إلى الآخرين مدّ يد العون إليه لإيصال صوته وشكواه إلى من بيده الأمر. فالشّاحج على ما يمتلكه من ثقافةٍ ووعي لما يجري حوله، ورغبةٍ في التغيير، استسلم لعجزه الجسديّ، ولكنّه لم يفتقد القدرة على الكلام، فأبدع في ذلك أيّما إبداعٍ، وصوّر ما يتعرّض له من إذلالٍ وتعذيبٍ من قِبَلِ المالك وأجيره وجاره الذي أوقع به الأذى حتى " أثّر الكِدَانُ في العنقِ أثراً أبيضَ يظنّه مَنْ جَهِلَ بَرَصاً."[٣]ويتابع الشاحج موضّحاً ما يتعرض له من إيذاءٍ قائلاً:

" ألستُ في عَنْبرة الشتاءِ يَأْخذُ عباءتي الأجيرُ فيتدفأُ بها في الليل، فأمارس قِرَّةَ الأشهبين؟[...]، فحوافري من العَفْرِ غُبْرٌ[...] وجحافلي من عُضّ المِصْرِ مُتَقَرّياتٌ، وأعمامي من القُمْرِ الوحشيةِ وربائِطِ الأهلِ كأنّ جحافلها من الخُضْرَةِ مسبداتُ المقتبلين."[٤] يظهر أثر المكان في جسد الشّاحج، في وجهه، وفي رقبته، وفي فمه، إنّه يكابد صعوبات العيش، ويناضل في تحمّلها، يُساق كلَّ يومٍ عنوةً إلى العمل في أرض كثيرة الشّوك، حيث يعاني فصلاً جديداً من الآلام بطرقٍ جديدةٍ، يقول:" وإذا أضَّني قَرْصُ المُغنيّاتِ في الهَجْرِ إلى غِشْيانِ المجنونةِ، جلدني العسيفُ جَلْدَ العاهر أو القاذف، وقد علم اللهُ براءتي من القِرَاف، وإنّي لأعرف الطَّيْرَةَ في وجهه وهو فالٍ."[٥]

---

[١] الشامي، حسّان. ١٩٩٨م، *المرأة في الرواية الفلسطينية (١٩٦٥ - ١٩٨٥)، دراسة*. اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، ص٢٤١.

[٢] المعريّ. *رسالة الصاهل والشّاحج*. ص٨٩.الأبق: القنب أو قشره، الملطس: حجرٌ ضخمٌ يدُّ به النوى، وهو المعول الغليظ لكسر الحجارة، والملطس: الرمي بالحجارة ونحوه. قرواه: أصل موضعه في أسفل البئر.

[٣] *المصدر السابق*. ص ١٠٠.

[٤] *المصدر السابق*، ص ١٠١. العفر: التراب، الجحافل: ج جحفلة بمنزلة الشفة من الإنسان، العض: علف الإبل من يابس الحشيش وما صغر من شجر الشوك، المصر: الطين الأحمر، مسبدات المقتبلين: من سبد شارب الغلام إذا ابتدأ ينبت بعد الحلق،

[٥] *المصدر السابق*، ص ١٠٣، أضّني: ألجأني، المغنيّات: الحشرات، الحجر: الهاجرة، المجنونة: الأرض المعشبة، العسيف: الأجير، القراف: البغي، فالٍ: أحمق.

لا يحدّد السّارد المكان، بل يتركه مفتوحاً ليشمل الأراضي الزراعيّة باختلاف تضاريسها، واختلاف خصوبتها، فالعقاب الذي ينال الشّاحج يكون في العمل، إذ لا مهرب منه إلا إليه، يدور الشّاحج في حلقةٍ مفرغةٍ، لا توصله إلى هدفٍ، بل يجترّ أنينه، وهو في الحقيقة يدور في المكان؛ يرفع الماء من بئرٍ ليسقي أرضاً لا تحفظ عهد مائها العزيز، الذي يتسرّب إلى حيث كان.

٤. تشكيلات المكان في رسالة الصّاهل والشّاحج:

نادى الروسي (يوري لوتمان) بالإفادة من مفهوم التقاطب للكشف عن جوهر المكان،[١]وذهب إلى أنَّ: " نماذج العالم الاجتماعية والدينية والسياسية والأخلاقية العامة التي ساعدت الإنسان[...] على إضفاء معنى على الحياة التي تحيط به [...] تنطوي دوماً على سماتٍ مكانيّةٍ. وقد تأخذ هذه السمات تارةً شكل تضادٍّ ثنائيّ [...] وقد تكتسب الأنساق المكانية الخاصّة التي يبدعها نصٌّ بعينه، [...] دلالةً من خلال وضعها في إطار أبنية صور العالم هذه."[٢]وهو بذلك يؤكّد أهمية الدّور الذي يؤدّيه المكان في تشكيل مفهومات الإنسان الذي يسعى دائماً إلى تقريب المجردات، بتجسيدها في محسوسات من خلال ربطه بالقيم الإنسانية. فالثنائيات المكانية هي أدواتٌ لبناء النماذج باختلاف انتماءاتها في الحكاية.

تضجُّ رسالة الصّاهل والشّاحج بأسماء الأمكنة التي يجمعها تبعيتها لإمارة حلب، وهي بذلك عرضةٌ لغزوٍ محتمَلٍ من الرّوم، فباتت تجهّز سكّانها لمواجهة ذلك الغزو، بعضهم بالهرب، وبعضهم بالاعتماد على رمزية الاسم، وتأرجحت بنية الخطاب الحكائيّ في الرسالة بين أمكنةٍ متعددةٍ ودلالاتٍ مختلفةٍ، وقد أنتج هذا الخطاب مجموعةً من الثنائيات أضفت صبغةً فنيةً جماليةً على المكان، وأعطى انفتاحُ المكان من جهة، وتقييدُه من جهة أخرى خصوصيةً للرسالة عزّت في سواها. وقد أدّت عبارة السارد " فبينما الشاحج يناجي الضابح، سمعا لُجةً في المصر، فيقول الشاحج: ألا تعلم لنا الخبر يا ثُعالَ؟ "[٣] دوراً في التمهيد للتخلّص من محدودية المكان وانفتاحه على فضاءٍ حكائيٍّ رحبٍ، ضمَّ أمكنةً متباينةً، وعوالم اتّحدت في احتمال تعرُّضها لغزوٍ وشيك .

تمتلك الشخصيّات الفاعلة في الحكاية حريّة التنقّل في الأماكن باستثناء الشّاحج الثابت في مكانه الخاصّ الذي لا يخضع لقانونه، فهو لا يمتلك قياد نفسه، والمكان الذي يقيم فيه على انفتاحه واتّساع رقعته أشبه بالسجن يخضع لقوانين الآخرين، وعلى أنّ المكان مفتوحٌ بالمطلق أمام بقية الشخصيّات، لكنّه يمتصُّها فجأة، إذ تتلاشى عند انتهاء حوارها مع الشاحج، فلا تُعرَفُ وجهتها ولا كيفية اختفائها.

وإن ارتبطت الشخصيّات الإنسانيّة (غير الفاعلة) ارتباطاً خاصّاً بالمكان، فإنّ أحداث الحكاية أثبتت ضعف تلك العلاقة؛ إذ تتخلّى تلك الشخصيّات عن أمكنتها بيسرٍ عند شعورها بخطر حربٍ مرتقبةٍ، لم يؤكّدُ احتمالُ حدوثها، فلم تكلّف نفسها عناء الانتظار لمعرفة حقيقة ما سيجري، بل بادرت مسرعةً إلى الجلاء عن المكان غير الآمن من وجهة نظرها، والسعي لتحظى بمكانٍ أكثر أمناً.

يعتمد أيُّ كاتبٍ على المجتمع الذي يعيش فيه، يستمدّ منه مادته الإبداعية، ثمّ يقوم بعملية خلقٍ فنيٍّ لمجتمعٍ متخيَّلٍ، يحمل كلّ مقوّمات المجتمع الواقعيّ، له شخصياته التي تحرّك أحداثه ضمن أمكنةٍ خاصّةٍ، وأزمنةٍ محدّدةٍ. ويُخْضِعُ الكاتب مكانه الفنّي للتقاطبات الضديّة التي يخضع لها الكون؛ ليُظهِر من خلالها رؤيته لعالمه الإبداعي ومن ثمّ الواقعي. ورسالة الصّاهل والشّاحج تقوم على المكان بالدرجة الأولى، ويمكن القول: إنّها حكاية أمكنةٍ، إذ يطالعك المكان في كلّ مفصلٍ فيها، والرسالة كُتبت من أجل المكان، حفاظاً عليه وتكريماً له، فتزدحم فيها الأماكن بشكلٍ غير مسبوق، وهي على كثرتها غير محدّدة المعالم، بل يعمد السارد إلى إجمال القول فيها، فيذكر أسماءها تارة،

---

[١] يُنظر: جماعة من الباحثين. ١٩٨٨، *جماليات المكان*.ط٢، عيون المقالات، دار قرطبة، الدار البيضاء، ص ٦٤.

[٢] *المرجع السابق*، ص٦٩ ـ ٧٠.

[٣] المعريّ. *رسالة الصّاهل والشّاحج*، ص ٤١٥.

ويذكر بعض صفاتها تارة أخرى من دون أن يفصّل في تضاريسها وموقعها الجغرافيّ. ولأنّ المكان عنصرٌ مهمٌّ من عناصر السرد الحكائيّ؛ "لا يعيش منعزلاً عن باقي عناصر السرد وإنّما يدخل في علاقاتٍ متعددةٍ مع المكوّنات الحكائيّة الأخرى للسرد كالشخصيّات والأحداث..."[١] فهو يشكّل الفضاء والحيز الذي تجري فيه أحداث الحكاية، كما يشكّل الفضاء الأفقي الذي تُروى الأحداث حوله. ويختلف الحديث عن المكان باختلاف تجليّه في سياقاته المعرفيّة والدلاليّة، وقد تضمّنت رسالة الصّاهل والشاحج أماكنَ متعددةً، كان لها حضورها وأثرها الكبير في مجرى الحكاية. فالأماكن المفتوحة تبعث الراحة في النفس، وتجعلها أكثر تفاؤلاً في مواجهة الحياة، وتشكّل الطبيعة ملجأً يسعى إليه الفرد عندما تزداد تعقيدات الحياة وتواجهه ضغوطاتها؛ لما تمتاز به من انفتاحٍ على العالم الخارجي، في حين تبعث بعض الأماكن المغلقة الطمأنينة في النفس، ويثير بعضها القلق، ويودي إلى الثبور. وتختلف دلالة الأماكن المفتوحة أو المغلقة تبعاً للحالة النفسية لروّادها وقاطنيها، فربما يعيش الفرد في مكانٍ مفتوحٍ، لكنّه على رحابته يراه ضيقاً إذ يقيم فيه إقامةً جبريةً، وقد يعيش في مكانٍ مغلقٍ، لكنّه على ضيقه يجده وسع الفضاء، إذ يقيم فيه سعيداً، فينطلق منه بروحه، ليعاين أفضيةً أوسع يتوق للعيش فيها.

وقد حدّد كاتب رسالة الصّاهل والشّاحج الحقل الذي رُبط فيه الشّاحج، مكاناً لحكايته، وعلى أنّ ملكية الحقل خاصّةٌ، لكنّه يبدو في السياق الحكائي مسرحاً تتوالى عليه الشخصيّاتُ الحكائيّة فكانت وظيفته تهيئة الأجواء للحدث، يشير إلى المهد الذي يضمُّ الحدث الحكائيّ.

يشكّل الحقل مكاناً مفتوحاً للشخصيّات الحكائيّة، يمرّون به، فيصيبون من مائه ويرتعون في فيئه، ثمّ يغادرونه من غير أن يترك في نفوسهم أثراً يدفعهم للعودة إليه، باستثناء الثعلب الذي يلحُّ على العودة مراراً ليلتقي الشاحج ويمدّه بأخبار البلاد. في حين يشكّل الحقل للشّاحج على انفتاحه مكاناً مغلقاً، فهو مقيّدٌ فيه، مكفوف البصر، يدور في دوامةٍ لا تنتهي، تُمارَس عليه إجراءاتٌ تعسفيّةٌ تجرّده من خصوصيته، وترمي به إلى درك الدونية، فالحقل على رحابته كالسجن يمثّل "عالماً مفارقاً لعالم الحريّة"[٢] يفتقد فيه الطمأنينة ويُقيم فيه إقامةً جبريةً فيما يشبه العقوبة، فينكفئ على ذاته، يمتصُّ كلَّ ما يرده من الخارج، ليعيد إنتاجه بعد معالجته برؤيةٍ نقديةٍ ثاقبةٍ، فالحريّة التي ينشدها الشّاحج يمارسها بأفكاره، جسده مقيّدٌ في المكان، وروحه هائمةٌ لا تقيم في حيزٍ محدّدٍ. وهكذا يحمل الحقل دلالة الضدين.

لكنّ الحقل ليس المكان الوحيد الذي حمل في ذاته تناقضاً في الرسالة، فهناك أماكن أخرى تبدّلت دلالتها بسبب تبدّل أحوال ساكنيها، فبيوت أهل المصر وأماكن عملهم كانت أماكنَ خاصّةً مغلقةً، آمنةً لساكنيها، تشكّل ملاذاً للراحة، أو مصدراً للرزق، وفي الجفلة فقدت أمنها، وعمّت الفوضى أرجاءها، فتحوّلت دلالتها إلى النقيض، فدكان الصيدلانيّ كان "مرتّباً على أحسنِ هيئةٍ [...] فانتقض ترتيبُ الدُّكانِ [...] فترى الدُّكانَ وقد اختلط إهليجُه بالعُنّاب والصبار، ووتيرُه المعلولُ بسَليلِ المُصابِ قد وقع فيه بعضُ الأدهانِ. وكذلك

---

[١] بحراوي، حسن. *بنية الشكل الروائي*، ص ٢٦.

[٢] *المرجع السابق*، ص ٥٥.

القاهي صار عُنْجُدُهُ مع البَلَسِ وخليطِ الضروِ، وفُريَ عَفْزُهُ بالقُمْروض، ولحق في تغيُّرِ الهيئة بالصيدلانيّ. وتخلو عند ذلك أحشاء الخضر والسود اللواتي طال ما اشتملن على ضمائر حارةٍ باردةٍ، تلذّها الأفواه."[١]

إنّ المتن الحكائي للرسالة يحيلنا إلى أمكنةٍ مفتوحةٍ وأخرى مغلقةٍ، تجسَّدَتْ الأمكنة المغلقة في أماكن خاصّة، وأخرى عامة، يُظهِرُ من خلالها تبدّلَ الأحوال، "ويُعطَّلُ في هذه الفادحةِ بيتُ المسيحِ، فلا يدخُلُه المسلمُ ولا النصرانيُّ، ويكون ماؤه في اليوم الأوّلِ شخيماً وفي اليومِ الشافعِ بارداً، ثم تَصْفَرُ أنابيبُ الحميمِ فتَصْفِرُ بها جنودُ الرّيحِ.[٢]

تغيب الشخصيّات التي تنتمي إلى المكان، فروّاده قد غادروه، مصطحبين معهم معالم الحياة، فيحتل (جنود الريح) ما تبقّى من المكان، موعزين للخراب أن يعمّ، بعد أن أغمد الخوف سيفه في الأرواح.

وتتوالى الأمكنة المفتوحة في الرسالة، وقد اختفت معالمها، وتباينت تأثيراتها، ولكنّ السّارد استطاع أن يفيد من أسمائها، يضعها في مواجهة ما تتعرّض له البلاد من قلاقل ربما تغيّر مجرى الحياة بأسرها. فالأماكن التي ستقطعها الجالية في مسيرها كثيرةٌ، والأمر يعود للجالية في اختيار وجهتها، لكنّ الشّاحج ينبّه على ما تحمله أسماء الأماكن من طاقةٍ لها أثرها الكبير في النّفس فتفعمها بالتفاؤل، أو تشؤمها بالطيرة، مُحيلاً ذلك إلى ما رُويَ عن الحسين ﷺ " أنّه لمّا سَأَلَ عن الموضع الذي قُتِل فيه، قالوا له: كربلاء. قال: (كَرْبٌ وبلاء) وإذا أخذت من كربلاء لفظ الكرب لم يبق من الكلمة لفظ بلاء، وإذا أخذت منها لفظ البلاء لم يبق منها لفظ الكرب، وإنّما ذلك شيءٌ يقع بالتقريب."[٣] مؤكّداً ما ذهب إليه بما رُويَ أنّ أبا جعفر المنصور" لقيته البيعة بعد موت السفّاح بموضعٍ يُقال له (الصُّفينة)، فقال: صفت لنا إن شاء الله."[٤] فالسّارد ومن ورائه المعري يسوّغ ما ذهب إليه في الرسالة مستنداً إلى وقائعَ تاريخيّةٍ كانت مفصلاً حقيقياً ومنعطفاً مهمّاً في التاريخ العربي والإسلامي؛ لذا يرى الثعلب أنّه يجب على الجالية قصد حلب، لسكن عزيز الدّولة فيها، ولما يحمله اسمها من فأل بالنصر، إذ " يُقال للذين ينصرون الرَّجُلَ من بني أبيه أو قبيله الحلائبُ[...] وإن كانت من الحَلَبِ، حَلْبِ اللّبنِ، فحسبُها بذلك خيراً وبركةً."[٥] ولا يشير عليهم أن يتّجهوا نحو الشرق؛" لأنّه ناسب لفظ الشَّرَقِ، وجرجَنَازُ: جرجٌ نازٍ، والكفير، وإن كان أهلُها أحراراً فإنّ لفظها من لفظ الكفر..."[٦] ومن الفأل بأسماء البلدات الشامية التي ربما يمرُّ بها طاغية العدو فتكون نحساً عليه وعلى جيشه، وفألاً بالنصر للعرب اسم مَرَعَش الذي يُمكن شطره إلى شطرين: مَرَّ" من قولك مرَّ فلانٌ وذهب، أي مات وهلك. وعَش: مقاربةٌ لفظَ عشَّ الشجرُ، إذا يبس ورقه وقصرت أغصانه [...] يصير: مرَّ عَشٌ، أي هلك شيخٌ مثل الشجرة العَشَّة."[٧]والفأل للعرب في اسم

---

(١) المعري. *رسالة الصّاهل والشّاحج*، ص ٤٥١ ـ ٤٥٢ ـ ٤٥٣.الصبار: التمر الهندي، الوتير: نور الورد، سليل المصاب: ما يؤخذ من قصب السكر من سكر وعسل، العنجد: الزبيب ، البلس: الزبيب والتين، الضرو: البطم، العفز: الجوز، القمروض: اللوز، الخضر والسود: قناني الأشربة من حارة وباردة.

(٢) المعري. *رسالة الصّاهل والشّاحج*، ص ٤٥٣. بيت المسيح: الحانة، الشخيم: المتغير الرائحة من فساد، أنابيب الحميم: الماء الساخن، تصفر: تخلو.

(٣) *المصدر السابق*، ص ٥٠٨.

(٤) *المصدر السابق*، ص٥٠٨.

(٥) *المصدر السابق*، ص ٥١٢.

(٦) *المصدر السابق*، ص٥٠٧.الجرج: القلق.

(٧) *المصدر السابق*، ص ٦٥٠، ٦٥١.

أنطاكية جاء من كلمة" أنطى في معنى أعطى، ورُوِيَ أنّ النبي ﷺ قرأ: إنّا أنطيناك الكوثر وفي أنطى ضميرٌ، وهو اسم الله. وكيّة: فِعلة من كويتُ، كما تقول الطِّيَّةُ من طويتُ، والنيّة من نويتُ..."[١]

ويحدّد الشّاحج المكان المؤقّت الذي أقامت فيه جالية أرضه، ظنّاً منها بأمنه، وقد تحمّلت في مكوثها كثيراً من المتاعب والأوصاب،" فزعموا أنّهم كانوا في العَلاةِ قد ضاقت بهم المنازلُ، فكانوا بالنهار ينتقلون في الظلال والأفياءِ كأنّهم سِخالُ الربْرَبِ حَمِيَ عليها القيظُ. وكانوا فيما يذكرون يَمتَحُون رِحَالَهم إلى أعلى البِرجَةِ كما تُمْتَحُ دِلاءٌ بالحوأَبِ، وهن حوأباتٌ، وحَرِجَ بالجاليةِ محلُّ القومِ القاطنين، فرأيت مضطجعَ الإنسانِ في غير هذه النائرةِ، يضطجع فيه الثلاثة أو الاثنانِ. فكان مَثلُ النّاس في ذلك مثلَ الضادَات لمّا اجتمعن في قول العَدواني:[...]

إن شكلي وإن شكلَك شتَّى فالزَمِي الخُصَّ واخفِضي تبيضِّضِي

فمَثَّلُ هذه الضادَات، مثلُ امرأتين كانتا في مكانٍ متضايقتين، فجاءتهما امرأةٌ ثالثةٌ فدخلت بينهما."[٢]

تتعارض الغاية التي خرجت لأجلها الجالية من ديارها مع المصير الذي لاقته في المكان الذي حلّت فيه، فحمَلَ المكانُ الجديدُ دلالاتٍ معاكسةً لما أريد له أن يحملها، وعلى انفتاحه ضاق بساكنيه، وفقد خصوصيته وغدا مُشاعاً، وقد حمل بُعداً نفسيّاً بكشفه حالة التيه والضياع التي تعيشها الجالية، إذ بدأ صراع الإنسان مع العالم الخارجي، وقد لقي من شدة العيش وعناء الرحلة ما يدفعه إلى عدم الفرار إن وقع إرجافٌ ثانٍ.[٣] ويتخيّل السارد أحداث الجفلة " ويتتبّع مفارقاتها، ويرسم صورها بأدقّ التفاصيل، محاولاً إضفاء الطابع الحيويّ المثير على الحدث الواقعيّ، وإثراءه بمشاهد وإيحاءاتٍ وظلالٍ تأثيريّةٍ مثقلةٍ بالدّلالات الإنسانية."[٤]معتمداً في ذلك على التلميح والإشارة إلى المكان دون الإسهاب والتفصيل في تحديد تضاريسه وسعته، فقد مثّلَ ازدحامَ النّاسِ في المكان وضيق مأواهم في قوله:" وكان مثلُ النّاس في اجتماع الجماعة الكثيرة في البيت الحرج، مثل الكلم لمّا اجتمع وتضانك في قول الجُعفيّ:

عِشْ ابْقَ اسْمُ سُدْ

اجتمعت فيه أربعٌ وعشرون كلمة، كلُّ كلمةٍ منها جملة، وأقلُّ ما تكون الجملة من شيئين."[٥]

لا يخفى عن المتلقّي ما تبعثه هذه الأماكن الجديدة في النازحين من شعورٍ بالقلق وعدم الاستقرار، ما يحمل النازح على الانطواء على ذاته، ويدفعه إلى الاختلاء بنفسه، ويُقيّده بقوانين يفرضها المكان، فالمكوث الإجباري في المكان يولّد رفضاً له، ويوقع الفرد بالسلبية التي تؤدي إلى رفض كلّ ما ينبثق منه، مكتفياً بذاته، مع عدم رفضه للآخرين، الذين يشكّل معهم مأساة النزوح.

---

[١] *المصدر السابق*، ص٦٥٢.

[٢] المعريّ، *رسالة الصّاهل والشّاحج*، ص ٦١٠ ـ ٦١١، العلاة: جبل، سخال الربرب: أولاد البقرة الوحشية، يمتحون: يستخرجون، البرجة: ج برج، الحوأب: ماء أو موضع قيب من البصرة ـ المنهل، دلو حوأب: ضخمة، حرج: ضاق، النائرة: الهائجة.

[٣] يُنظر: *المصدر السابق*، ص ٦١٤.

[٤] الأسدي، علي عبد الإمام مهلهل، ٢٠١٧م، *صورة نازحي حلب في رسالة الصّاهل والشّاحج لأبي العلاء المعريّ. مجلة آداب البصرة*، العدد ٨١، ص١٤٧.

[٥] المعريّ. *رسالة الصّاهل والشّاحج*، ص ٦١٢.

ويستمرّ السارد في عرض التقاطبات المكانيّة، مما لا يخلو من قصديّة، ويمكن القول بثقةٍ: إنّه لم يكن بريئاً في عرضه، بل كان هذا العرض وسيلةً وهدفاً لتعرية الواقع، وإشارةً بما يشبه التصريح بالحدث التاريخيّ من نقل الرّباب والدة أسد الدولة إلى حلب بأمرٍ أميريّ، في محاولةٍ لطمأنة النّاس في الجفلة، في حين أنّ عزيز الدّولة يطمئن نفسه من أيّة محاولة غدرٍ من أسد الدولة، فيعمد السارد إلى ثنائية المرأة البدوية المُضيفة والمرأة الحضرية النازحة، وبيت الشَّعر وبيت الحضر، ويتّخذ من المفارقة الحياتية بين حياة البدو وحياة الحضر سبيلاً لكشف ما يكابده النازحون من معاناة، وقد أسهب في الحديث عن بيت الأعراب، وأماكن سكناهم مُسقطاً ذلك على علم العروض، مُبرِزاً تمكّنه منه، يقول:" أُحذِّرُ الجاليةَ من بيوتِ الأعرابِ، يا حَضَرِيَّةُ لا تصلحين لجوارِ البدويةِ، إنّ بيتَ الأعرابيّةِ من الشَّعْرِ وكأنّه بيت الشِّعرِ، إنّما هو رائحٌ وغادٍ، يَسْلُكُ بهضيبٍ أو وادٍ، ويحلُّ تارةً عند الوعِلِ والظَّيَّان، ويُضْرَبُ مرةً بين خُزَامَى الدَّمَثِ [...] وإنّما بيوت الأعراب كالقوافي الجُذِّ [...] فما ظنّكَ بجِواءٍ يُنْتَقَلُ من الجبل إلى القاع، ويُشبَّهُ بهدية المسيَّبِ إلى القعقاع [...] فما ظنُّك يا حضريّةُ بأهل دارٍ يُحمَل بيتهم على البعير ويُدلج به في العِي؟ ريحانكٍ نبْتٌ في حوضٍ، وريحان البدوية مبثوثٌ في الرّوض [...] وأهل الحضر يرثون بيوتهم أباً عن جدٍّ، وأهل البدو يفتقرون في المدة القصيرة إلى بيتٍ مُسْتجَد."[1]

إنّ إسهاب المعريّ في الحديث عن البدو والحضر وعقد المقارنات بينهما يمكن أن يوضع موضع التعريض بأمر عزيز الدولة بانتقال الرّباب إلى حلب في أثناء الجفلة، وهي من الأعراب. كما يحمل إدانةً واضحة لمن تركوا بيوتهم، وتنازلوا عن حياتهم الكريمة، ونزلوا في أماكن ضيقةٍ موحشةٍ لا تتوفّر فيها أدنى مقوّمات الحياة.

وفي الجفلة لا يحفل النّاس بما اختلفوا فيه سابقاً، فلا ينظر أحدهم إلى دين الآخر أو طائفته، غايتهم مكانٌ يلجؤون إليه، يسبغ عليهم السكينة والطمأنينة، يجمع شتاتهم ويداري سوءاتهم " وأوشِكُ بالرَّجُلِ من يهودَ أن يفتقرَ إلى الرَّجلِ من رَهْطِ المسيحِ. فإن كان المتهوِّدُ حصيفَ العقلِ أَرَمَّ وشغله ما هو فيه عمَّا سلَفَ من حديثِ الأنبياءِ، وأَرَى النصرانيَّ أنّه غيرُ حافلٍ بدينِ التوراةِ، ولا آمُرُهُ بمخالفةِ الدينِ، ولكنْ أحثّه على حُسْنِ العِشرةِ وسياسةِ الأمورِ، فمَثلُ هذا الرَّجلِ إذا افتقر إلى غيرِهِ فحلَّ في منزله، مَثَلُ الحرفِ المُدْغَمِ لَقِيَه الحرفُ الآخرُ فانقلبَ الأوَّلُ إلى حالِ الثاني. ألا ترى أنّك لمّا أردتَ أن تُدغِمَ الخاءَ في الغينِ جعلتَ الخاءَ غيناً فقُلتَ: اسلخ غنمَكَ، فجعلتَ الخاءَ من اسلخْ غَيناً لمكان إدغامِها في غين غنمك، وكذلك لام التعريف تصيرُ مع الرّاء راءً إذا قلتَ: الرَّجل، ومع الدال دالاً إذا قلت: الدُّرُّ. وعلى هذا تجري حال المدغماتِ."[2]

لقد جعلت الحرب الناس يعيشون في خوفٍ دائمٍ، يتمنون الهرب إلى أماكن آمنةٍ، شغلهم الشاغل أن يحظوا بمكانٍ ـ حلُمٍ ـ يلوذون فيه من شرٍّ لا يد لهم فيه، فانفتحت آلامهم بعضها على بعضٍ، وتلاشت الفروق بين الأديان، ورُممت بين الطوائف، فالحرب وحدّت الجميع في الخوف.

٥. أبعاد التشكيل المكاني :

أدَّتْ أبعاد المكان دوراً بارزاً في إظهار جمالياته في الرسالة، وقد اتخذتْ تلك الأبعاد أشكالاً مختلفة منها :

البعد التاريخي :

---

[1] المعري، *رسالة الصّاهل والشّاحج*، ص٥١٤ ـ ٥١٥ ـ ٥١٨ ـ ٥١٩.

[2] *المصدر السابق*، ص ٤٩٥ ـ ٤٩٦. أرى: فعل ماضٍ بمعنى أظهرَ ضميره للمتهود

وقعتْ أحداث حكاية الصّاهل والشّاحج في زمن الأمير أبي شجاع فاتك الرّومي، فيما يسمّى العصر العباسي، وكان من المفترض أن يكون ذلك تحت ظلّ الراية الفاطميّة، لكنّ الأحداث التاريخيّة تشير إلى محاولة الأمير الانفصال عنها، وتنقلنا القراءة الأوليّة إلى ذلك الزمن أو التاريخ المذكور الذي يرتبط بشكلٍ مباشرٍ بالمكان التاريخي الذي دارتْ فيه وقائع الحكاية، ذلك المكان الذي يمتدُّ في عمق الزمان، فيوثّق الأحداث، وقد تركت معالمها أثراً جليّاً في حلب وقلعتها، وخندقها[١]، وقصرها، ومسجدها الجامع.[٢]

البعد الاجتماعي :

دارت الأحداث في مجتمعات مختلفة، و داخل أمكنة متعددة، ومستويات اجتماعية متباينة، وقد عُني الفضاء الاجتماعي بتصوير حياة المجتمع العربي بل الإنساني في حال النوائب والحروب، وإيضاح الاتفاق الضمني في طريقة مواجهتها، على اختلاف الطبقة الاجتماعية أو الثقافية التي تنتمي إليها الشخصيّة، والانتصار كان للمكان الذي جمع كلّ مكوّنات المجتمع في حيّز جغرافيٍّ صغير، ضمّهم وحنا عليهم، ولمّ شملهم، ودفعهم للعيش في ظروف واحدةٍ على اختلاف انتماءاتهم الطبقية، مما أسهم في رسم صورةٍ للوضع العام في ذلك الزمن.

البعد السياسي:

لقد كان للمكان الذي جرت فيه أحداث الحكاية بعده السياسي، فأبرز مكانة حلب السياسية، ودور حكّامها في كتابة تاريخ المنطقة، فالعلاقة مع ملك الروم قامت على أساس التحالف للوقوف في وجه الفاطميين للدفاع عن المكان، وتسليمه للرّوم، ثمّ تحوّلت تلك العلاقة إلى عداوةٍ بعد موت الحاكم بأمر الله في مصر وتسلّم الظّاهر لإعزاز دين الله خلفاً له، ما دفع عزيز الدولة إلى التراجع عن اتفاقه مع ملك الروم، بل تهديده بالتحالف مع الأعراب لحربه إن تقدّم إلى حلب، ما يُظهر أهمية المكان في السياسة، وحرب الإشاعات التي هي أثرٌ من آثار السياسة على المكان بمن فيه، كانت تدور في المكان المهدّد بالحرب، الأمر الذي يشي بأهمية المكان، وما صور النازحين عبر المكان إلا من أثر السياسة في المكان والمجتمع الذي يسكنه، وتغيير معالم المكان كان ناتجاً من نتائج السياسة.

لقد توسّل المعري المكان بكلّ ما يحمله من معانٍ مباشرةٍ وبعيدةٍ لسبر أغوار مضمرات القول فيما أراد إيصاله من تعريةٍ للواقع المعيش في تلك المرحلة من مراحل التاريخ العربي، ولتمرير رؤاه في التنبيه على الحلول الممكنة التي يغفل عنها الساسة والعامة بقصدٍ أو من دون قصدٍ.

الخاتمة:

- أولى المعريّ أهميةً خاصّةً للمكان في رسالة الصّاهل والشّاحج على خلفية أنّها كُتِبَت من أجل المكان المتمثّل في أرض أبناء أخيه، موضع الشكوى التي أراد إيصالها لأمير حلب، واتّخذ من هذه الأرض مسرحاً

---

[١] يُنظر: *المصدر السابق*، ص ٦٩٦.

[٢] يُنظر: ابن العديم، أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله؛ وضع حواشيه: خليل المنصور. ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م، *زبدة الحلب من تاريخ حلب*، ط١، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان، ص١٢٤.

للحدث الحكائي، حيث تناوبت عليها الشخصيّات الفاعلة في أثناء مرورها لغايات أخرى، مُحدِّثةً الشّاحج في أمورٍ مختلفةٍ، لها إسقاطاتها على اللغة فكانت اللغة كائناً حيّاً حمل تبعيات حربٍ وشيكة على مجتمعٍ يعاني من ساسةٍ وحكّامٍ همّهم المحافظة على حكمهم.

- اعتمد المعري على أمكنةٍ مختلفةٍ ظهرت في حوار الشخصيّات الفاعلة، في حين ارتبطت الشخصيّات غير الفاعلة بالمكان ارتباطاً خاصّاً ظهر في ردّ فعلها تجاه خبر توجّه ملك الرّوم لغزو بلادهم.
- أظهرت الرسالة أبعاداً مختلفةً للمكان، فقد أعطى أثر الحرب على المكان بعداً تاريخياً، في حين صوّرت الرسالة حياة المجتمع العربي في العصر العباسيّ، وردّ الفعل الإنسانيّ تجاه النوائب والأحداث، أمّا البعد السياسي فقد برز من خلال دور الحكّام في صناعة تاريخ المنطقة برمّتها؛ فكانت رسالة الصّاهل والشّاحج مدوَّنةً لمصير شعبٍ تاه عن أمكنته الخاصّة التي شكّلها بمحبةٍ ورغبةٍ في البقاء، إلى أمكنةٍ غريبةٍ عنه سرقت حلمه في السموّ والرقيّ، محاولاً التمسّك بأهداب حياةٍ.

المصادر:

١. *القرآن الكريم.*

٢. *الكتاب المقدّس.*

٣. ابن العديم، أبو القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله؛ وضع حواشيه: خليل المنصور. ١٤١٧هـ، ١٩٩٦م، *زبدة الحلب من تاريخ حلب*. ط١، دار الكتب العلميّة، بيروت، لبنان،٥٢٨.

٤. الجرجاني، علي بن محمد؛ تحقيق ودراسة: محمد صديق المنشاوي. معجم *التعريفات*. دار الفضيلة للنشر والتوزيع والتصدير، القاهرة، ٢٥٤.

٥. المعري، أبو العلاء؛ تح: د. عائشة عبد الرحمن. ١٩٨٤م، *رسالة الصّاهل والشّاحج*، ط٢، دار المعارف، مصر، ٨٠٨.

المراجع:

١. إبراهيم، نبيلة.١٩٩٢م، *نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغويّة الحديث*، ط١، مكتبة غريب، القاهرة، مصر، ١١٦.

٢. باختين، ميخائيل؛ تر: يوسف حلاق. ١٩٩٠م، *أشكال الزمان والمكان في الرواية*، ط١، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ٢٤٠.

٣. باشلار، غاستون؛ ترجمة : غالب هلسا. ١٩٨٠م، *جماليات المكان* ، وزارة الثقافة والإعلام بغداد ، ٢١٤.

٤. بحراوي، حسن. ١٩٩٠، *بنية الشكل الروائي: الفضاء، الزمن، الشخصية* ،بيروت، المركز الثقافي العربي، ط١، ٣٣٦.

٥. بدوي، عبد الرحمن. ١٩٨٤م *موسوعة الفلسفة*. ج٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط١، ٣٧٨.

٦. جماعة من الباحثين. ١٩٨٨، *جماليات المكان*. ط٢،عيون المقالات، دار قرطبة، الدار البيضاء، ١٢٤.

٧. حسانين، محمد مصطفى علي.٢٠٠٤م، *استعادة المكان (دراسة في آليات السرد والتأويل في رواية السفينة لجبرا إبراهيم جبرا نموذجاً)*. ط١، دائرة الثقافة والإعلام، الإمارات العربية المتحدة، حكومة الشارقة، ٩٨.

٨. زيتونة، لطيف. ٢٠٠٢م، معجم *مصطلحات نقد الرواية*. ط١، مكتبة لبنان ناشرون، دار النهار للنشر، بيروت، لبنان، ٢٣٥.

٩. الشامي، حسّان. ١٩٩٨م، *المرأة في الرواية الفلسطينية (١٩٦٥- ١٩٨٥)*. دراسة، اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، ٣٢٦.

١٠. صالح، صلاح. ١٩٩٧م، *قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر*،ط١، دار شرقيات، القاهرة، ١٥١.

١١. صدوق، نور الدين. ١٩٩٤م، *البداية في النصّ الروائي*، ط١، دار الحوار، سوريا، اللاذقية، ٩٢.

١٢. العبيدي، حسن مجيد.١٩٨٧م، *نظرية المكان في فلسفة ابن سينا* . ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد،١٩٨.

١٣. الفيصل، سمر روحي. ١٩٩٥م، *بناء الرواية العربية السورية ١٩٨٠– ١٩٩٠*. اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، ٤٥٣.

١٤. لحمداني، حميد. ١٩٩١م، *بنية النص السردي من منظور النقد الأدبي*، ط ١، المركز الثقافي العربي، ١٦٠.

١٥. محمد، علي عبد المعطي. ١٩٨٤م، *قضايا الفلسفة العامة ومباحثها*، ط٢، ، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ٤٣٠.

١٦. النابلسي، شاكر. ١٩٩١م، *مدار الصحراء (دراسة أدب عبد الرحمن منيف)*. ط١،المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ٥٥٢.

١٧. النصير، ياسين. ١٩٨٦م، *إشكالية المكان في النص الأدبي*. ط١، دار الشؤون الثقافية العامة، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد.

المجلات والدوريات:

١. أحمد، مرشد. ١٩٩٢م، *جدلية الزمان والمكان في روايات عبد الرحمن منيف*، *مجلة بحوث جامعة حلب*، العدد ٢٢، ٤٥ ـ ٦٢.

٢. الأسدي، علي عبد الإمام مهلهل.٢٠١٧م، *صورة نازحي حلب في رسالة الصّاهل والشّاحج لأبي العلاء المعريّ. مجلة آداب البصرة*، العدد ٨١، ١٣٣– ١٧٦.

٣. الزعبي، زياد. ١٩٩٥م، *المكان ودلالاته في رواية العودة إلى الشمال* ،*مجلة أبحاث اليرموك*، جامعة اليرموك، الأردن، المجلد ١٢، عدد ٢، ٢٠٥ ـ ٢٢٥.

٤. مرتاض، عبد الملك. ١٩٩٨م، في نظرية الرواية (بحث في تقنيات السرد)، سلسلة عالم المعرفة (٢٤٠)، المجلس الوطني للثقافة و الآداب، الكويت، ٢٨٩.